قراءة في ثلاثية مولود معمري

الدكتور جمال شوالب

جامعة الأمير عبد القادر

إن ما يمكن ملاحظته في روايات مولود معمري الأدبية (**الهضبة المنسية، رقاد العادل والأفيون والعصا**) يؤدي بنا إلى التمعن والنظر في الكيفية التي يمكن للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أن يحدث بها تغييرا، أو ثورة، أو بالعكس يدخل ضمن قضايا وقوانين، أو عادات تكون قد اكتسبت من قبل سواء على مستوى الشكل أو المضمون ؟

ولعل ما يشدني إلى هذا النوع من الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في الجزائر هو هذه الجزالة وهذه المتانة التي يتمتع بها والتي جعلت منه أدبا مميزا صار يضاهي، ليس فقط الأدب في فرنسا، من حيث أسلوبه وشكله وبنيته من جهة، ولأنه مختلف عن الآداب الأخرى في العالم بما يتميز به من أفكار من جهة أخرى.

ويعتبر مولود معمري واحدا من الكتاب الجزائريين الذين أبدعوا هذا النوع من الأدب، واستطاعوا أن يمثلوه أحسن تمثيل، وقد ساعده في ذلك تلك الظروف الاجتماعية والسياسية القاهرة التي ضربت المنطقة آنذاك بما وفرته له من مادة حية، كما ساعده أيضا ذلك الترويج الاستعماري للآثار الأدبية المكتوبة باللغة الفرنسية حيث لم يكن ليقبلها إلا لكونها تخدم مصالحه، حتى ولو أبى وأنكر الكاتب ذلك.

وقبل الحديث عن ثلاثية مولود معمري يجدر بنا، من الناحية التاريخية، أن نعطي لمحة قصيرة عن حياة هذا الكاتب لأن دراسة التراجم قد تساعدنا من الوجهة النفسية على فهم النص الأدبي وفك رموزه وحل تعقيداته.

ولد مولود معمري يوم 28-12-1917 بقرية توريرث ميمون بأعالي جبال القبائل الكبرى حيث تتمركز قبيلة بني يني التي ينتمي إليها الكاتب.

وبعد السنوات الأولى التي قضاها معمري في أحضان عائلته بين حنان والديه وصعوبة المنطقة، دخل الكاتب إلى المدرسة عام 1928 وفيها تعلم الحروف الأولى باللغة الفرنسية، ثم هاجر إلى المغرب وعمره أحد عشر عاما، وبها دخل إلى السنة السادسة بثانوية قورو (Gouraud) بالرباط حيث يوجد تلاميذ الأثرياء والكولون والمستعمرين وأثناء تعليمه كان معمري دائما يحن إلى وسطه العائلي وما كان يحمله من قيم لديه.

وبعد الرباط بالمغرب، رجع الكاتب إلى وطنه الجزائر عام 1932 حيث تابع دراسته بثانوية بيجو (Bugeaud) بالجزائر العاصمة، وفي هذه الفترة بدأ مولود معمري الطالب يحضر شهادة البكالوريا التي تحصل عليها عام 1937.

وبعد البكالوريا، غادر الكاتب الجزائر ثانية متجها إلى باريس وبها بدأ يتابع دراسته العليا بثانوية لويس الكبير (Louis –Le- Grand) حيث كانت نصب عينيه المدرسة العليا أو ما يسمى آنذاك "بدار المعلمين"، وكان من بين أساتذته: جون قرونييه (Jean Grenier) في الفلسفة، ولويس جرفه (Louis Gerveh) الذي حبّب له هوميروس، وكذلك لوسان (Lesenne) الذي سمع إليه كثيرا، بالإضافة إلى لويس جوفه (Louis Jouver) الذي رآه يمارس التمثيل[1].

كل هذه الأمور مجتمعة لا بد لها من أن تغرس في نفس الكاتب الشاب حب الدراسة وحب التأليف.

1 - مراسلات بيني وبين مولود معمري.

إن انتقال الكاتب من الجزائر إلى الرباط حيث كان عمه يعمل طبيبا لـــدى السـلطان المغربي، وإلى باريس الفرنسية، له سببه وما يبرره هو الحالة الاجتماعية التي كـــان يحتلـها حينذاك، حيث كان يشغل منصب رئيس البلدية بمعناه الحديث.

في عام 1939 أي بعد عامين، رجع مولود معمري إلى الجزائر لقضاء عطلته في الوقـــت الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية، وفجأة، رأى نفسه معبأً في الجيش تحـــت القيـادة الفرنسية، ثم دخل مدرسة الضباط بشرشال.

و في أكتوبر 1940 أنهى الكاتب تعبئته في الجيش، وسجل نفسه بجامعة الجزائر لتحضـــير شهادة الليسانس في الأدب.

وفي عام 1942 عُبِّئَ الكاتب من جديد بعد الإنزال الأمريكي بشمال إفريقيا، حيث شارك في الحملات العسكرية بإيطاليا وفرنسا وألمانيا إلى أن جاء عام 1945 وبعد أيام قليلة، عـــرف الكاتب بأن 08 ماي 1945 من جانب قالمة وسطيف وخراطة ... هذا التاريخ بالذات هو يـوم النصر من جانب الحلفاء الذين كانوا يدافعون عن مبادئ الحرية والديمقراطية والإنسانية ...

هذا التاريخ نفسه الذي جاء من وراء البحر كان دفنا لهذه المبادئ نفسها التي دافع مـــن أجلها مولود معمري مع فرنسا.

وفي عام 1947، رجع الكاتب إلى الجزائر في شهر سبتمبر، حيث بدأ مهنته كأستاذ بمدينـة المدية، وبعدها انتقل إلى ثانوية ابن عكنون بالعاصمة كأستاذ للأدب الفرنسي.[1]

وفي عام 1952، طبع الكاتب روايته الأولى بعنوان "الربوة المنسية " (La Colline Oubliée) بفرنسا أحرز من خلالها على جائزة.

وفي عام 1954، وبعد شغب الحرب العالمية الثانية بعشر سنين، اندلعت الحرب التحريريـة في نوفمبر، ويومها كان عمر الكاتب سبعا وثلاثين سنة، حيث كان يناضل داخل الحركـــة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (M.T.L.D) تحت اسم مستعار يدعى "سي بوعكاز".

1- Albert Memmi: Ecrivains Francophones du Maghreb (Anthologie) SEGHERS, Paris.1985

وبعدها مباشرة، أي في عام 1955 طبع الكاتب روايته الثانية بعنوان "رقاد العادل" (Le Sommeil Du Juste). ثم في عام 1957، نتقل مولود معمري إلى الرباط بالمغرب هروبا من القمع الفرنسي بالجزائر. فمكث هناك إلى حين رجوعه إلى الجزائر في نهاية عام 1962 سنة الاستقلال، حيث اشتغل كأستاذ بجامعة الجزائر بدائرة العلوم الاجتماعية، ثم أصبح مديرا مركز الأبحاث الأنثروبولوجية.

وفي عام 1965، طبع الكاتب روايته الثالثة بعنوان: "**الأفيون والعصا**"(L'Opium et le bâton).

ثم في عام 1982، طبع الكاتب روايته الرابعة بعنوان: "**العبور**" (La Traversée).

وقبل هذه السنة وبعدها، خص الكاتب كل وقته للكتابة في مجالات شتى من وجوه المعرفة.

وفي 26 فيفري من عام 1989 ، توفي الكاتب إثر حادث مرور بالقرب من عين الدفلى، غرب الجزائر العاصمة، وكان عمره آنذاك 72 سنة.

فمن خلال هذا التسلسل التاريخي، نلاحظ جليا أن الكاتب مولود معمري أديب من الأدباء الجزائريين الذين ينتمون إلى بلد قد استعمر من طرف فرنسا والتي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية عندما أخذت الجزائر استقلالها وحريتها، وللإشارة، فإن كل ما فعله، وكل ما أراد أن يقولاه، لا يمكن إلا أن يدخل تحت هذا الإطار، أي كل هذه المحطات التي طبعت خمسا وأربعين سنة من معاناة الإنسان.

فجل رواياته الأدبية تسجل حالة ومرحلة من حياة الشعب الجزائري النضالية من خلال محنته الصعبة، والتي نراها من خلال:

1 ."**الربوة المنسية**":

وهي الرواية الأولى وتحكي موضوع الوصايا السلفية التي تجعل كل شيء يسير وفق نظرتها وطلباتها، وبل ورافضة كل ما هو جديد عليها، وهذا ما يسمى بصراع الأجيال. فهي تبدو منسية في شكلها ومظهرها، ولكنها ليست منسية في خيال المؤلف، بل ظلت حية من

خلال هذا الخط الحياتي المستمر بالنسبة لمختلف أبطال هذه الربوة، فـــهي تمثـــل المـــاضي التقليدي لسكان القرية بما فيه ذكرى الحب والسعادة وآمال وأحلام الأوقات الهاربة.

إن هذه الرواية تحكي قصة قرية تقع في أعالي جبال منطقة القبائل الجزائريـــة، تحيطـــها أراض وعرة في حين عرف أهاليها أن أسباب المقام فيها قد صعب وعسر، مما دفع أغلبـــهم للهجرة إلى مناطق أخرى داخل الجزائر وخارجها، إلى بلاد المغرب الأقصى حينا وإلى وراء البحر إلى بلاد فرنسا حينا آخر.

وعبر أحداث الرواية الداخلية، وهي مجموعة من القضايـــا الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة والنفسية التي كان يتخبط فيها سكان هذه القرية الميكروسكوبية بالنسبة للبلاد ككل، فـــإن هذه المشاكل، وعلى الرغم من هيجانها وبلوغها حد المنازلات القتالية، كانت هذه البلـــدة آمنة وهادئة كلاسيكية حينا، ورومانسية حينا آخر، بعيدة كل البعد رعن مختلف التوتـــرات الخارجية السياسية منها والعسكرية التي كانت تتقاسم أجزاء العالم في ذلك الوقت.

لكن هدوء هذه القرية وسكونها لم يطولا كثيرا بسبب نداء التعبئة العسكرية الذي وجهه الاستعمار الفرنسي للشباب الجزائري، راضين كانوا أم مرغمين.

وفي انتظار الحرب العالمية الثانية، فإن تعبئة الشباب في صفوف العسكر الفرنسي الـــذي يمثل صورة تحضيرية لتهيئتهم لخوض غمار الحرب الكبرى.

والمتتبع لخيوط هذه الرواية، يستبعد مباشرة أي تأثير فني أو أدبي قد يحدث بين "**الربـــوة المنسية**" و"**الربوة الملهمة**" للكاتب الفرنسي أندري جيد من جهة وبين "**الربوة المنســـية**" و"**المستأصلون**" للكاتب الفرنسي موريس باراس من جهة أخرى.

فصورة الحرب هنا هذه الرواية هي صورة مستقبلية لأحـــداث ســـاعدت الأوضـــاع الاجتماعية والسياسية المجهضة على تهيئتها.

ومن هنا، نستطيع القول بأن رواية "**الربوة المنسية**" قد وضعت الحرب في خلفية نسيجها العام، وبالتالي نلاحظ أنها جاءت بعيدة، وأن وقعها كان بدون فاعلية على مستوى سكان "**تازقا**" هذه القرية القبائلية الصغيرة.

فمولود معمري من خلال هذه الرواية، أراد أن يقول لنا بأن التوقعات العسكرية التي من الممكن أن تولدها الحرب العالمية الثانية، هي توقعات حقيقية ولا ريب فيها، ليس فقط فيما يخص العلاقات شمال -جنوب، وإنما أيضا فيما يتعلق بالأحداث الداخلية للجزائر مع مواجهاتها السياسية والعسكرية ضد فرنسا.

وعليه، وخاصة في هده الفترة من الزمن، لا يمكن إلا أن ندرس هذه الرواية من موضوعها الإيديولوجي، وأن أي عمل أدبي يبدعه جزائري، لا يهمنا إطلاقا، على الرغم من جماله الفني، إلا من خلال وجهة نظر واحدة، وهي: ما هي القضية التي يتبناها هدا العمل الأدبي ؟ أو بمعنى أخر، ما هي وضعيته تجاه المقاومة الفاصلة بين الحركة الوطنية الجزائرية والاستعمار الفرنسي إن هده الرواية بنظر مؤلفها مولود معمري تصور الجو العام لقرية تازقا القبائلية، في الفترة المنحصرة ما بين 1939 إلى 1943، وهي الفترة التي وقعت فيها الحرب العالمية الثانية.

ولاشك أن أية حرب تقع في بلد ما ، تنتج عنها مجموعة من الآثار سلبية كانت أم إيجابية، فمن خلال فصول الرواية، تلاحظ في أول الأمر، هدا الأمل الكبير الذي ولده لدى أغلب القرويين، هدا الصدام المسلح بخلاف شيخ وحيد، وقد اعتبره مشكلا رأى من خلاله أنه عقاب من الله تعالى سلطه على القرية.

إن هذه البلدة الآمنة في زمانها السابق، قد تغير شكلها، واهتزت أركانها، اختلطت أمورها ،و لم يعد بعض أهلها يحترم قواعدها وينفذ أوامرها و نواهيها.

لذلك، نرى أن أسلوب الحياة قد انتقل من لحظة سكون كان يهيمن على سكان القرية نتيجة تحكم الفكر الأصولي الكلاسيكي في مسار الأمر والنهي، إلى لحظة تمرد وهيجان اقلبت أوضاع القرية رأسا على عقب.

أما نتائج هذا التغيير، فأنها تتمثل في مجموعة من القضايا منها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والنفسية العاطفية.

إن سكان القرية كانوا ينتظرون الكثير من هده الحرب لكن يبدو أن آمالهم قد خابت وانكسرت لأن "هذه الحرب لم تأت بالتغيرات الكبيرة المنتظرة منها"[1] نتيجتها: قد انتشر البؤس والشقاء خاصة مرض التيفويد الذي ضرب منطقة القبائل خلال الحرب.

من الواضح كذلك، أن هذه الحرب قد ساعدت القرويين بل وأجبرتهم على الخروج من قوقعهم إلى مناطق أخرى لم يكونوا بالغيها من قبل.

وعلى الرغم من تمسك الأهالي بالخلاق والعادات والتقاليد الموروثة عن آبائهم وأجدادهم، فإن هذه الحرب قد ساعدت على كسر هذا الحاجز وتفكيك هذا الموروث الحصين، لأن "الحرب تسمح بكل شيء"[2] فترى النساء يختلطن بالرجال عند مسيرة الوداع الخاصة بتعبئة الأبناء للخدمة العسكرية في صفوف فرنسا، كما أن رياح اللعنة قد هبت على هذه القرية، فكونت ما يسمى بصراع الأجيال، وجعلت الأبناء في خصام عنيد مع الآباء نتيجة فساد الخلاق والابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

وبهذا العمل الأدبي الفني، استطاع الكاتب مولود معمري أن يصبغ بشيء من الازدراء والسخرية والنقد الواقع المعيش خلال هذه الفترة الهاربة من الزمن، واضعا بين قوسين، العادات والتقاليد والموروث الاجتماعي والثقافي والأخلاقي ككل المتمثل في الآباء والأجداد أو الماضي بصفة عامة الذي يرفض وينبذ كل ما هو جديد، مهما كان هذا الجديد الذي يأتي!.

1- الربوة المنسية. ص83، ترجمة شخصية.
2 - الربوة المنسية. ص49، ترجمة شخصية.

لذلك فإن بعضا من مواطني الكاتب قد ضربوا عرض الحائط مضمون هـــذه الروايـة المتمردة، واعتبروها مسا وتعديا على الشخصية الدينية والوطنية للشعب الجزائري آنـذاك، لأن كل جديد لا يكون دائما مصيبا بالضرورة.

أما الرواية الثانية "**رقاد العادل**" فإنها تحكي موضوع ربط الحالات منعدمة المخرج، والتي تتطلب الحل السريع، وبعبارة أخرى، تحكي انتماء الجزائري المثقف وهـو تحـت قبضـة الاستعمار، وما يعانيه من صراعات فكرية ونفسية عـبر مختلـف السـلوكات العدائيـة والعنصرية.

2 . "رقـــاد العـــادل":

وهي الرواية الثانية من ثلاثية مولود معمري الأدبية حيث تشغل فضاء مكانيا هو نفسـه الفضاء المكاني الذي عشنا فيه من خلال رواية "**الربوة المنسية**" وقد دارت أغلب أحـداث هذه الرواية في قرية "إقزر" القبائلية في ربيع 1940، وتستمر إلى غاية نهاية الحـرب العالميـة والإعلان الرسمي عن انتصار الحلفاء على النازية الألمانية.

ومن هنا نلاحظ أن رواية "**رقاد العادل**" هي في حقيقتها تكملة لما حـدث في روايـة "**الربوة المنسية**" ولكن باستعمال لهجة مختلفة عن سابقتها في الرواية الأولى، لتستمر معـها آمال القرويين في التغيير الذي ستحدثه الحرب وبالتالي القضـاء علـى البـؤس والشـقاء والأمراض التي ما فتئ يعاني منها سكان القرية، لذلك فقد اعتبروا هذه الحرب على شـكل "عناية إلهية للبؤساء"[1] وعلى إثرها ينكسر جدار الصمت ليحل محله نظام آخر جديد.

خلافا لما رأيناه في الرواية السابقة من حيث عدم حركية قرية "تازقا"، هـذا السـكون المهيمن على مجمع القرويين، فإن رواية "**الربوة المنسية**" ترسم حركة ازدواجية في الداخـل وفي الخارج، نبدأها بإعلان الابن أرزقي العصيان على أبيه، وفي هذه الصورة ليـس فقـط لصراع الأجيال، وإنما خاصة تمثل صراعا بين العالم الكلاسيكي القـديم المتمثـل في الأب،

1.- الربوة المنسية. ص38، ترجمة شخصية.

والعالم الجديد الذي يحمل مشعله الابن الصغير، وهو صورة مصغرة للعالم الأوروبي، وقد تلقى تعليمه في المدرسة التي لقنته الفلسفة الإلحادية وأشياء أخرى من خلال أستاذه المعجب به أشد الإعجاب السيد "بواري".

إن صورة الحرب في هذه الرواية تبدأ مباشرة بلقاء الشيخ الذي يشبه شيخ **"الربوة المنسية"** مع المستعمر المتمثل في الكوميسار، وأن هذا الأخير قد أهانه إهانة كبيرة، وعذبه تعذيبا نفسيا ولا أخلاقيا حتى أصبح يفكر في الرحيل إلى الرفيق الأعلى "وأن الدنيا بالنسبة إليه بدأت تتحول إلى غبار هذا المساء"[1].

عند بداية الحرب العالمية الثانية، عبئ أرزقي في صفوف العساكر الفرنسيين للدفاع عن قضية هي غير قضيته بل هو أبعد منها بكثير، لكن هذا الالتحام الخارجي مع الجيش الفرنسي جعله يكتشف حقيقته من خلال مختلف المعاملات العنصرية التي كان يتلقاها من الجنود والضباط في ميدان الحرب، وأن كل ما تلقاه من علوم إنسانية في المدارس الفرنسية مفاهيم الحرية والمساواة والعدالة إنما هي خداع ولباس يحمل بداخله أنيابا عنصرية، ومن هنا بدأ أرزقي المثقف يسترجع ذاته وشخصيته السياسية والوطنية، وقد عرف في الأخير بأن هناك حاجزا يفصل بينه وبين فرنسا، وأن هذه الهوة هي بمثابة الصيحة المؤدية إلى الصحوة والتي تؤدي بدورها إلى الوعي والتحكم بزمام الأمر، إنه الفجر الذي يأتي بعد ليل دامس، أو ليس هذا ما أدركه بطل الرواية في زنزانته حين قال: "عندما نخرج من هنا ... وكلنا أخيرا أحرار ... كل أحداث هذه الأيام ستبدو لنا وكأنه حلم أو كابوس ليلة. سينتهي بؤسنا وشقاؤنا، وأن وقتنا قد حان لكي نكون سعداء"[2].

وعلى أنغام هذا الأمل، تنتهي الرواية لتترك المجال لبزوغ غد آخر جديد.

1- رقاد العادل. ص32، ترجمة شخصية.
2- رقاد العادل. ص238، ترجمة شخصية.

وأما الرواية الثالثة "الأفيون والعصا" فهي تحكي موضوع الامتحان الصعب والمعقد الذي تلقاه الشعب الجزائري، والذي من خلاله، يأمل إلى التحرير الوطني، وهو ما حدث بالفعل.

3 . "الأفيون والعصا":

إن رواية الأفيون والعصا تعتبر آخر رواية في ثلاثية مولود معمري الأدبية بعد "الهضبة المنسية" (1952) و"رقاد العادل" (1955).

نشرت هذه الرواية عام (1965) بعد عشرة أعوام من الصمت وفي الوقت نفسه، عشرة أعوام من الغليان الاجتماعي.

والأفيون والعصا تحكي أحداث حرب التحرير الوطني وهي الصورة الاستعمارية المهزومة، أو كما يقول مولود معمري في إحدى حواراته[1].

إن هذه الرواية تصور تلك القرية القبائلية وقد هزتها أحداث الحرب الجزائرية، وهي تروي الصراع ما بين فرنسا المستعمرة الظالمة والجزائر المناضلة المكافحة.

وإذا تتبعنا خيوط الرواية، من حيث نشأتها وتطورها، نجد أن جل عناصرها متوفرة ليتكون هذا المشهد الثوري العنيف.

في البداية، نرى أن الكاتب قد أعطانا صورة هادئة للوضع، أولها (**تالا**) تلك القرية الساكنة البعيدة عن عنف الإجرام، حيث تحكمها ضوابط عائلية في صورة عائلة لرزق المتكونة من سمينة الأم العجوز، وأولادها الأربعة وهم: "**بلعيد**" الابن الأكبر المهاجر ويعمل في إحدى مصانع باريس بفرنسا، ثم "**بشير**" الابن المثقف الذي استطاع أن يدخل المدارس الأوروبية، ويتخرج فيها طبيبا، ويليه "**علي**" الابن الأصغر الذي دخل صفوف الحزب كمناضل وطني، وأخيرا الأخت "**فروجة**"، وتعمل كأداة وصل مع المجاهدين، مع العلم أن الأب قد توفي، فأخذت الأم مكانه في تسيير شؤون البيت.

1– أسبوعية الجزائر – الأحداث 30 /0/1972.

فمن خلال عنوان الرواية، انطلق مولود معمري عبر إيديولوجية خاصة تمثل إيديولوجية الحكم الذي يؤمن بأن لكل شيء ضده، وبالتالي فإن العامل منقسم إلى فريقين:

فريق يحكم ويؤثر، وهو المستعمر، وفريق آخر يأخذ ويتأثر وهو المستعمر بفتح الميم، وعليه فإن المستعمر وهو الفريق القوي يستعمل طريقتين للتأثير في الفريق الضعيف هما: الأفيون، ويعني الجذب والترغيب والغواية، وكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني التنويم الثقافي والعقلي والأخلاقي.

وأما العصا، فترمز إلى العنف والقوة والضرب.

فعبر هذين العنصرين، يتسنى للمستعمر أن يلعب دور المسير، فإذا خاب ظنه في استعمال الأفيون واستخلص بأن المستعمر لم يستجب له، ولم يفقد قواه العقلية والأخلاقية، انتقل إلى استعمال العصا، واستبدال لباس العنف والضرب بالقوة.

ومن هنا، يمكننا معرفة صورة الاستعمار الفرنسي وحقيقته العدوانية، وأساليبه البوليسية في الجزائر، عندما قال أحد أبطال الرواية: "ثلاث سنوات مضت، ونحن محل بحث وتفتيش وتسجين، وضرب وتعذيب، صالحون لكل مرق، ومقتولون بكل الصور لكي نرتد ونرجع عن الصواب بالقوة، ترغيب أو ترهيب، فمنذ أن أصبحت الدنيا دنيا، ولا حكم على الإطلاق استطاع أن يخرج عن هذين الحدين ألا وهما: "الأفيون والعصا"[1].

من خلال ثلاثية مولود معمري، نلاحظ أن صورة الحرب هي دائمة حاضرة، لقد صور حرب التحرير الجزائرية في أسمى معانيها، وفي مختلف صورها من كولون، وبوليس، وعسكر من الجانب الفرنسي. ومن مناضلين، ومجاهدين، وعمال، وشعب من الجانب الجزائري. فنحن نحسها عبر محطات كثيرة من خلال أحاديث القرويين فيما بينهم، لكن في الروايتين المواليتين، فإن حدة الحرب قد زادت شيئا فشيئا، عبر الأحداث اليومية، وكذلك عبر موقف

1- الأفيون والعصا (الرواية) باريس، دار النشر بلون، 1965، صفحة 14. (ترجمة خاصة).

القرويين ووعيهم السياسي، سواء في الفترة التي شهدت الحرب العالمية الثانية أو في ما يخص حرب التحرير الوطني.

كما تمثل عملية قطع أشجار الزيتون في رواية الأفيون والعصا صورة حقيقيـــة للنظـام الاستعماري السائد، وخاصة عندما ألزم سكان (تـــــالا) على المشاركة الذاتية في عمليـة القطع، لأن أشجار الزيتون تمثل في نظر الضابط مارسيلاك المخبأ الحصين والملجأ الأســـاس للثوار والمجاهدين.

وفي هذا، ضرب على الوتر الحساس لسكان القرية الذين يعشقون أشجارهم الزيتونيـــة أشد العشق، بل إن حياتهم هي في هذه الأشجار لأنها تمثل الرمز القوي المتمثل في ارتبـــاط الجزائري بأرضه.

بعد حين، يقوم الطيب الخائن ليلقي شبه خطبة في الناس فيقول: "لقد انتظر أســــلافكم خمسة عشر قرنا كي تقوم أشجار الزيتون وتكبر، في حين خمسة عشر يوما فقـــط كـانت كافية للكفار لقطعها"[1].

كذلك يتبادر إلى الذهن صورة استشهاد المجاهد علــي بطل الثورة التحريريـــة، وهــي صورة حقيقية لبشاعة الحرب الجزائرية: "سقط علــي دفعة واحدة نحـــو الأمـــام، يــداه ممدودتان ساقطتان على شكل صليب، يغمرهما التراب، رأسه مضجع جهة اليسار وكأنـه في نوم عميق، راسما في الأرض قبلة من شفتيه المفتوحتين، إن الطلقة كانت سريعة جـــدا"[2] لذلك فإن التعذيب هو ميزة من مزايا الاستعمار الفرنسي.

ففي رواية "الأفيون والعصا"، نلاحظ أن المجاهدين قد أصابهم تعذيب شديد بمختلـــف الطرق الجهنمية التي كان يمارسها المستعمر.

وبعد قراءتنا لمختلف المقاطع التعذيبية، فإن مولود معمري يدفعنا، بل ويجبرنا على متابعة هذه المشاهد الترهيبية بكل قوة وألم.

---

1 - الأفيون والعصا (الرواية) صفحة 259. ترجمة شخصية.
2 -المصدر نفسه، ص 365. ترجمة شخصية.

لقد نجح الكاتب هنا في تعبئة القارئ ووضعه أمام الصورة الحقيقية لعملية التعذيب، وبالتالي، دفعه لمعايشة لحظة الهذيان هذه في حالة قمعية وزاجرة.

من هنا، نستطيع القول، بأن مولود معمري قد اختلف عن محمد ذيب[1] على سبيل المثال، في طريقة تصوير الأحداث الإرهابية بعيدا عن الأسلوب التصويري الذي يحاول لمس شعور القارئ فقط، دون أن يتعداه إلى التأثير النفسي الداخلي، زد على هذا الأسلوب المسرحي للرواية أدخلنا في عمق أحداثها بواسطة هذا الديكور الهائل المتمثل في الأبطال والقرية تالا بشوارعها ومنازلها المتراصة، ومساحاتها حيث يتجمع فيها السكان.

و"الأفيون والعصا"، رواية ثورية: فمن ناحية أعطى البطل فيها نظرة واقعية للانقلابات السياسية والإجتماعية آنذاك، ومن ناحية أخرى، ومن خلال هذه الانقلابات يتراء له التنبؤ بعهد جديد.

إن هذه الرواية هي من الأدب الحركي والتحليلي، حاولت أن تروي مقاطع وأحداثا عرضية من حرب التحرير الوطني، وقد عاشها بكل تمزق بطل الرواية الأساس الدكتور بشير لرزق، ممثل غالبية الشعب الجزائري.

كثيرون هم الأدباء الذين شاركوا، بصورة أو بأخرى، في النضال الذي كان يمارسه شعبهم، أنهم أحسوا بقربهم إليه خاصة أثناء سنين العسر والجمر، مما دفعهم إلى إعلان صوتهم واختيارهم الموقف المؤيد لنضال شعبهم وكفاحه.

وإذا قمنا بتحليل مواز بين حياة الكاتب الشخصية كما تتبعناها من خلال هذه المحطات التاريخية، وبين مواضيع ومحتويات رواياته الثلاثية، نجد أن هناك خيطا نفسيا وفكريا واحدا يربط بينهما، بل ويرشدهما ويسير أحداثهما، فكانت هذه الاسقاطات دليل اعتراف مولود معمري الشخصي بذلك.

1 -أديب جزائري باللغة الفرنسية معاصر.

باعتباره أديب العصر، فإن مولود معمري ما فتئ يصف عالما لا ينتهي من التوليد، بحيث في كل منعطف تاريخي نجد أن الوقت صعب للغاية، لأن الكاتب هنا يقابل بين حياة وانعكاسات الإنسان الشخصية، والذي هو بدوره يمثل جزءا لا يتجزأ من هذه الدائرة الكبيرة.

ومن خلال الأعمال الأدبية التي دونها مولود معمري، نلاحظ أن القارئ يلتقط مجموعة من صور القطيعة عبر أسطر الروايات، حيث نستطيع ذكر بعضها فيما يأتي:

- هدم القرية القبائلية من طرف المستعمر أمام أعين سكانها.

- المنفى المفروض على شخصيات الروايات، وهذا إما من طرف العائلة، أو بسبب الحرب، أو لظروف طبيعية أخرى.

إن التغير الانقلابي الذي خص الجانب السياسي والاجتماعي في الجزائر في تلك الفترة، دفع ببعض شخصيات الروايات أن يحتموا بالماضي باعتباره السبيل الوحيد للخلاص والأمن مقابل الحاضر المتعب والمقلق.

وهكذا، فإن أزمة الهوية في كتابات مولود معمري تتلخص كما يأتي:

- في رواية "**الربوة المنسية**" نلاحظ أن الشعب الجزائري لم يعترف له بهذه الهوية، على الرغم من أنه كان يعيشها.

- وفي رواية "**رقاد العادل**" فإن الشعب الجزائري، بعدما أحس بأنه يعيش هويته، قام ليطلبها سياسيا، أو بعبارة أخرى، فإنها تبدأ من نقطة الإحساس الشخصي بالهوية في مرحلتها الأولى، ثم تحول هذا الإحساس إلى المطالبة بها عمليا وواقعيا، وذلك في المرحلة الثانية.

- وأما في رواية "الأفيون والعصا"، وبعد الإحساس بالهوية والمطالبة بها سياسيا وبوعي كامل، استطاع الشعب الجزائري هذه المرة أن يذهب إلى حد السيف حتى يمكنه من أخذها

بالقوة، لأن هذه الهوية أصبحت جزءا منه لا يتجزأ ويعيشها كل يوم، ويحتفظ بها في عقلــه وقلبه[1].

كثيرون هم الأدباء الذين شاركوا، بصورة أو بأخرى، في النضال الذي كــان يمارسـه شعبهم، إنهم أحسوا بقربهم إليه خاصة أثناء سنين العسر والجمر، ممــا دفعــهم إلى إعــلان صوقم واختيارهم الموقف المؤيد لنضال شعبهم وكفاحه.

ومولود معمري، واحد من أولئك الأدباء، حيث اعتنق قضية شعبه، من خلال روايتــه الأدبية التي تلاحمت مع انشغالات زمانه، وقد أعطاها المكانة اللائقة بها.

فبواسطة كتاباته يمنح الكاتب لقرائه صورة مجملة ومنظرا عاما تنســج خيوطــه فــترة استعمارية تمر بالكفاح المسلح إلى أن تنتهي باستقلال الجزائر.

لهذا، فإن مولود معمري يوضح من خلال "**الأفيون والعصا**" أن روايته هذه تصــور مظهرا من مظاهر حرب التحرير الوطني في مجراه الطبيعي واليومي[2].

من خلال هذه الصورة الجزئية، نلاحظ أن الكاتب الجزائري لم يخطئ عندما اختار موقفه من خلال التزاماته الثورية، فمنذ الأحداث الدموية التي شهدتها الجزائر، لم يبخل الكــاتب، ولو بقدر أنملة، في كشف الغطاء عن البنية الاستعمارية، واتخاذ نفسه الناطق الرسمي لشــعبه حيث ساعده على معرفة القيم الموضوعية التي كان يكافح من أجلها.

ومن هنا، يكون الكاتب قد وقف موقفا إيجابيا، وشارك مشاركة فعالة في إنجاح آمــال شعبه الشرعية، وبهذا المفهوم فإنه يوافق إلى حد كبير، مقاييس الكاتب الناجح الذي يدمــج أدبه بصورة اختيارية وعفوية، مع ميكانيزمات الثورة في سيرها العادي، إلى أن يصبح سلاحا قويا، ليس فقط لتعليم شعبه وإنما أيضا وخاصة لضرب عدوه وقهره، في صــف واحــد، وبقلب واحد وبإرادة واحدة.

1- رسائل متبادلة بيني وبين مولود معمري.
2 - مولود معمري في حوار مع عبد الله مازوني (بتصرف).
Abdellah MAZOUNI: Culture et enseignement en Algérie et au Maghreb. Maspero, Paris 1969. P: 215.

إن كتابات مولود معمري الأدبية تطبع هذا الإحساس بالطفولة والبحث المتواصل في الأصول للرجوع إليها، قصد الاحتماء بها حتى لا يضل صاحبها.

وفي الوقت نفسه، ليشعر القارئ الأجنبي بهذا العالم السلفي الجزائري الحصين أمام هدف الاندماجية التي تعترض البطل وترفضه من جهة أخرى.

إن هذا النوع من أدب الأبطال والاحتفالات، نجده بارزا في مجتمعاتنا، وخاصة منها في الجزائر، لما سببه الاستعمار الفرنسي الغاشم من تمزق في الشخصية والإحساس بالغربة النفسية والمنفى ... إلى غير ذلك.

هذه المجموعة الأدبية المتميزة من حيث اختلافها وتنوعها وغناها، تضيء ذاكرة شعب كان بالماضي محتارا في أمره.